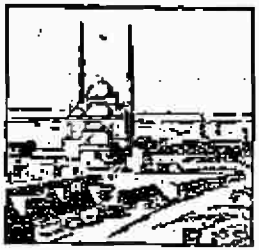

مكانة سوريا في التاريخ العالمي

١ — علاقة سوريا ببلاد العرب . ٢ — علاقة سوريا بآسيا واوربا وافريقيا . ٣ — امل سوريا في الغرب . ٤ — دين سوريا

تمهيد

بين البادية العربية وساحل الشرق المتوسط تمتد قطعة ارض خصبة تتراوح ما بين ٢٠ ميلاً الى ١٠٠ ميل عرضاً وتفصلها سلسلة من الجبال والاودية الى مقاطعات صغيرة حالت دون اتحادها ورضوخها لحكومة او سلطة وطنية واحدة . على ان حدودها الطبيعية — البحر في الغرب وجبال طورس في الشمال والبادية في الشرق والجنوب — تجعلها شيئاً من الوحدة ، وتفصلها عن بقية العالم

ولذلك أُطلق عليها بحق اسمٌ واحد ، هو سوريا . وهي كفلسطين يرجع اسمها الى الاغريق ولكن بطريقة معكوسة . فكما ان Palestina — وهي في الحقيقة Philistina — فلسطينا — كانت بادىء ذي بدء اسماً لجانب من الساحل فقط ومن ثم تطاول في الداخلية الى البادية ، كذلك نجد ان سوريا وهي تحريف اشور كان الاغريق يطلقونها اصلاً على الامبراطورية الاشورية من جبال القفقاس الى المشرق ثم تقلصت الى جانب من الفرات واخيراً اصبحت ضمن الحدود التي وضعناها ، يدعوها العرب « بلاد الشام » او الشمال اذ انها في الحقيقة الطرف الشمالي او الشمال الغربي من شبه الجزيرة العربية العظيمة التي يطلقون على الجهة الجنوبية منها « اليمن » او اليمين . اما الاسم پالستينا (Palestina) الذي يستعمله يوسيفوس نفسه للاشارة فقط الى فلسطيا (Philistia) فكان يستخدمه الاغريق لتمييز ساحل جنوب سوريا او يهوذا عن فينيقية وكيليكية — سوريا . فدعوها پالستينا السورية مستعملين كلمة « السورية » كصفة و« پالستينا » الاسم وحده . واشتق الرومان من ذلك « پالستينا » التي كانت في القرن الثاني مقاطعة واحدة ومن ثم قسمت الى ثلاث ولايات Palestina Prima فلسطين الاولى و Secunda الثانية و Tertia الثالثة . ولا يزال هذا الاسم باقياً يشهد على اصلها في كلمة « جند » العربية — فلسطين

---

(١) الجانب الاكبر من هذا المقال منقول عن كتاب الاستاذ جورج آدمسمث: جغرافية الارض التاريخية
George Adam Smith — The Historical Geography of the Holy Land by Hodder & Stoughton

وهذه الاسماء كلها غربية دخيلة. اما كنعان، اسمها المحلي، العريق في القدم فيرتاب في اصله. فمن الممكن ان يكون جنسيًّا، او جغرافيًّا وهو اكثر احتمالاً، ويعني غوراً او ارضاً وطيئة. ويلوح انهُ في بادىء الامر قد اختصَّ بالساحل الفينيقي لتميزه عن التلال التي فوقه. ولكنهُ من ثمَّ امتد الى المنخفضات الاخرى مثل سهل ساروتة (Sharon) ووادي الاردن، وهكذا الى جميع البلاد قاطبة، سهلاً وجبلاً

ويوسعنا ان نلخص تاريخ سوريا الجغرافي في فقرة واحدة: ان سوريا هي الطرف الشمالي من موطن الساميين — شبه جزيرة العرب — واشد اطرافها خصباً. وهذا الموطن الساعي يمتاز بمركزه الجغرافي المتوسط — بين آسيا وافريقيا وبين الاوقيانوس الهندي والبحر الابيض المتوسط اي اوربا. وعليه فالدور الذي مثله الجنس السامي على مسرح التاريخ كان دور نقل ووساطة. فالساميون كانوا اعظم وسطاء العالم. وفضلاً عن مهارتهم واقدامهم في الحروب فقد تبوأوا المستوى الاعلى في عالي التجارة والدين، وكانوا همزة الوصل بين الشرق والغرب لتوسطهم بين الحضارات القديمة العظيمة التي كان من ثمارها حضارتنا الحديثة. كذلك جعلتهم عبقريتهم السامية واسطة بين الله والانسان فأثبتوا انهم قادة العالم في الدين وبزغت من بين ظهرانيهم الاديان الثلاثة العالمية السامية، فتاريخ سوريا اذن هو نصيبها من هذه الوساطة الدينية من اقدم العصور الى الزمن الحاضر

وبكلمة اخرى اقرب الى الواقع، تقع سوريا بين قارتين، آسيا وأفريقيا. وبين مقرين اوليين للانسانية وادي الفرات والنيل. وبين مركزين كبيرين لنشوء الامبراطوريات — غرب آسيا ومصر ممثلة بذلك العالم الشرقي القديم، والبحر الابيض المتوسط، وهو المنفذ الموصل الى العالم الغربي والحديث. لقد شبهت سوريا بجسر بين آسيا وافريقيا — جسر تقع البادية عند احد طرفيه والبحر عند الطرف الآخر. والحقيقة ان جميع الفتوحات العظيمة في سوريا اذا استثنينا منها فتوحات بني اسرائيل والفتوحات الاسلامية، وقعت من جهتها الشمالية والجنوبية. على ان هذا الاستثناء يبرهن فقط على نقص في هذا التشبيه لا لان فتوحات بني اسرائيل والعرب كانت اعظم الموجات لمدٍّ وجزرٍ مستمرين من المهاجرة التي طغت على سوريا من بلاد العرب فحسب وانما لانها تمثل عبقريتها في الدين التي بتأثيرها في تاريخها فاقت كثيراً تأثير مركزها الجغرافي المتوسط. ليست سوريا جسراً فحسب بين آسيا وافريقيا بل هي ايضاً ملجأ لتلك القبائل التي نزحت من بلاد العرب، فهي لم تكن ممرًّا للحضارات وميدان حرب للامبراطوريات فقط بل مرعًى خصيباً ومدرسة لقبائل صغيرة لا يقع عددها تحت حصر. ولم تكن سوريا قناة مفتوحة للحرب والتجارة فحسب للعالم اجمع وانما مهداً

لنشوء اسمى ديانات العالم . ففي هذا المزيج من الجسر والمرفأ ، والميدان والمقدس ، والمزلة والامل ، الناجم عن طبيعة انقسام سطحها الى جبال وسهول ، يقع سرُّ تاريخ سوريا في الدين الذي رفع شهرتها الى ذروة المجد والفخار . اما من جهة حدودها الغربية فلم يقع اي فتح او اغارة الا .... الامل . حتى ان الامم الاوربية لما طمعت في اكتساح فلسطين لم تدخل جيوشها الى مرافئها حتى اصبح الساحل في حوزتها وتحت مطلق تصرفها . على ان سوريا شعرت ، من اول الامر ، ان مستقبلها يتوقف على هذا الساحل ، ولذلك دفعها هذا الامل الى البحر ، الى جزائر وبابسات تبعد كثيراً عن افقها ، وفعلاً نرى ان ، في الغرب ، تشعبت امبراطوريتها الروحية — وهي تلك الامبراطورية التي تكاد سوريا أن لا تعرف سواها — فادركت المستوى الاعلى من الرقي والتقدم

ويتبين لنا ، مما تقدم ، أن هنالك اربعة عوامل في تاريخ سوريا يحسن بنا ان نعرف شيئاً عنها باختصار وهي — علاقة سوريا ببلاد العرب ، ومنها استمدت سكانها ، ثم مركزها كميدان للكفاح بين آسيا وافريقيا وبين هاتين القارتين واوربا . ثم تأثيرها غرباً ، واخيراً ، دينها

١ — علاقة سوريا ببلاد العرب

رأينا ان سوريا هي الطرف الشمالي من العالم العربي الذي يحدُّه المشرق بجبال طورس ، والفرات بخليج العجم ، والمحيط الهندي ، والبحر الاحمر برزخ السويس . وفي هذه الحدود تماثل وتناسق بل وحدة في الطبيعة . فالارض نجدٌ مرتفعٌ قاحل ، ولكنهُ مطرز بواحات كثيرة الخصب ، يحيط به سطح واطيء اكثرهُ خصيب ايضاً . والسكان ساميون قطعاً ، ذوو عزيمة ماضية ، كثيرو النسل فتضيق بلادهم الجدباء عن اعالتهم لوفرة عددهم . على انهم منقسمون الى قبائل صغيرة دون ايما اصقاع محدودة تختص بها تماماً . وقد نزحت هذه القبائل كلها متحدة كامة واحدة في عصر واحد في تاريخها وذلك في عصر الاسلام لما امتدَّ سلطانها من الهند الى المحيط الاطلسي . وفي ما عدا ذلك من العصور الاخرى كانوا يظعنون من بلادهم القاحلة متجهين نحو الشمال متفرقين أما قبائل منفردة كل منها على حدة او بعض قبائل متحدة معاً . اما المنافذ التي كانوا يعبرون منها فهي اربعة — من باب المندب الى ابيسينيا (الحبشة) ، او من برزخ السويس الى مصر ، او من الفرات الى العراق ، او من الاردن الى غربي سوريا ، ولذلك اصبحت سوريا حوضاً كبيراً تتدفق نحوه الموجات العربية . ومن القبائل التي اكتسحت حدودها كان بعضها يأتي لتمضية فصل الصيف ثم تنكص على عقبها في الخريف ، كالبدويين في عصر جدعون او العشائر المختلفة من المعزة في عصرنا الحاضر . وهناك قبائل اخرى كانت تزحف من اواسط بلاد العرب او من جنوبها ، كبني

جَفْسن مثلاً، وقد هاجروا من اليمن في القرن الاول للميلاد ،فلما اقامهم الرومان حرّاساً على حدود امبراطوريتهم الشرقية اسسوا دولة عظيمة عرفت بالسماوة . وظعنت قبائل اخرى اما لان الارض التي كانت تسكن فيها وتعتمد عليها في ما تحتاج اليه من المواد الغذائية قد ضاقت بها او لانها اضطرت الى الرحيل مرغمة من النيل او وادي الفرات كالسوريين والفلسطينيين وبني اسرائيل

هكذا عمرت سوريا بالسكان . فلا تسطع انوار التاريخ على حدودها الاّ وترى نفس العملية جارية على قدم وساق . ففي يجتاز بنو اسرائيل نهر الاردن، وحين يأتي الديانيون فيخضعونها ، وحين يذهب اليهود في السبي ويأتي الادوميون فيحلون محلهم، وحين تتحد المدن اليونانية العشر Decapolis[1] لتصدّ عنها هجمات العرب ، وحين يعقد الرومان بسياستهم الحائلة ، تحالفاً مع بعض النازحين على ان يكونوا حائلاً منيعاً دون تقدم غيرهم من القبائل العربية التي كانت تجتاح امبراطوريتهم بين آونة واخرى ولاسيما اثناء الفتوحات الاسلامية . هذا واذا القينا نظرة على خارطة فلسطين ،في عصرنا الحاضر ، شاهدنا اجزاء منها تشتمل على اسماء قبائل Beni-Sab و Beni Humâr و Arab Amariu[2] بينما ترى في خارطتها القديمة بني نفتالي B'ne Naphtali وبني يوسف B'ne Joseph وبني يهوذا B'ne Juhudah وعشائر اخرى من بني اسرائيل . وكل هذه القبائل والعشائر قديمة وحديثة ، تنتمي الى الجنس السامي

اما اليوم،فلا ترى قبائل جديدة تظعن من اواسط بلاد العرب او من اية ناحية اخرى فيها لاكتساح سوريا ولكنك تشاهد قبيلة قوية كالرولة مثلاً تتنقل وتتجوّل كل سنة بين الفرات والاردن ، او عشائر صغيرة كثمامرة بادية يهوذا او عدوان مؤآب تعيش قروناً تغتصب خلالها اموال الفلاحين وارزاقهم ثم تتخذ الزراعة بالتدريج مسلكاً لها وتخضع لحكومة البلاد المتحضرة . ويتبين من كل ما ذكرناه امران :

---

(١) ولي نيتنا ان ننشر مقالاً عن هذه المدن نصف فيه احوالها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية ولا سيما وقد اتاح لنا الحظ ان نقوم بسياحة في اكثرها

(٢) يسوءنا جداً ان نذكر اسماء هذه القبائل كما وردت في كتاب المؤلف على اننا بذلنا قصارى جهدنا حتى توصل الى معرفة اسمائها الحقيقية باللغة العربية — اولاً من بعض رملاء الاردنيين والفلسطينيين وثانياً من بعض اعيانهم وزعمائهم فلم نوفق . على ان البعض ان Beni Sab ربما تشير الى (بني صعب) و(Arab. Amariu) الى عرب النهارنة وذلك للتقارب اللفظي ولكننا لما نثبت من ذلك بعد نظراً لقلة المراجع التي لدينا نحن نشكر لكل من يساعدنا في الوصول الى الحقيقة التي نقصدها جهداً [المترجم]

اولاً : ان اعظم الموجات التي طغت على سوريا من جنس يتألف من قبائل صغيرة مستقلة تناسب طبيعة البلاد ، فسوريا منقسمة الى اقاليم صغيرة تفصلها الصحراوات والجبال كما تفصل جبال الالب بعض مقاطعات سويسرا . فالعشائر التي نزحت زرافات ووحداناً من بلاد العرب قد لاءمت تضاطيع سوريا واجزاءها الطبيعية فكأنما سوريا كانت قبائلية بشكلها وطبيعة سكانها . وقد كان هذا العامل من جهة ، وكون سوريا تقع بين اجناس اخرى تناصبها العداء ، من جهة اخرى ، سبباً فعالاً حال دون تأسيسها امبراطورية سياسية

ثانياً — لقد كان سكان سوريا ساميين اصلاً ولا يزالون . ثم هنالك بعض انحاء قدمت اليها شعوب كثيرة مختلفة كالفلسطينيين والحثيين في العصور القديمة ، ثم جاء من بعدهم اليونان بكثرة ثم الصليبيون ، فيونان وأتراك وفرنجة واكراد . وثمة بعض مستعمرات شركسية الى يومنا الحاضر ، ولكنهم لم يؤثروا تأثيراً فعالاً في السكان مطلقاً . فالاورومة سامية . واذا كان ثمة من مزاحم او منافس للسامي ، فذلك هو اليوناني ، ولكن اليونان كانوا يقيمون في المدن حيث تربي نسبة الوفيات على نسبة المواليد ، ولو لم يزدد عددهم بما كان يفد اليهم من الخارج لتلاشوا ولما استطاعوا ان يحافظوا على صبغتهم الخاصة امام العرب او السوريين

٢ — علاقة سوريا بالقارات الثلاث

لما نزحت القبائل العربية من البادية الى سوريا وجدت نفسها على اتصال بآسيا وافريقيا من جهة ، وباوربا عن طريق البحر الابيض المتوسط ، من جهة اخرى ، فلم يكن في وسعها الا ان تطرح بنفسها في هذا الميدان وتشترك في التجارة العالمية . نعم لقد حال ذلك دون تأسيسها امبراطورية سياسية متحدة ولكن اثبتت للعالم قابلية عبقريتها السامية التي اكتسبتها من عزلتها الطويلة في البادية

ان موقع سوريا بين اعرق مهدين للجنس البشري في القدم جعلها ممراً للمواصلات وتبادل الثقافة والحضارة ، وليس ثمة من طريق في العالم طراً اقدم من الطريق الذي لاتزال تستعمله القوافل في سيرها من الفرات الى النيل ، مارة بدمشق والجليل ومرج بن عامر والسهل الفلسطيني وغزة . ويُشَكُّ في هل كان بوسع التاريخ ذكر حملات عظيمة — تميزاً عن الحروب القبائلية — اقدم من تلك التي نشبت بين اشور ومصر في سوريا حتى القرن السادس قبل الميلاد . وقد اكتسحت هذه البلاد امم اخرى لامت الى الساميين بأي صلة من القرابة من آسيا وافريقيا . فالحثيون تقدموا من جنوب آسيا الصغرى واجتازوا

جبال طورس وكذلك انقض عليها الاثيوبيون بعد ان دان لسلطانهم وادي النيل[١] وحوالي خاتمة النزاع بين اشور ومصر اكتسح السكيثيون سوريا من شمال القفقاس واعملوا فيها ايدي الخراب والتدمير[٢] ولما تداعت اركان الامبراطورية الاشورية ضمها الفرس الى امبراطوريتهم وتقدموا منها الى مصر. وبافتتاح عصر الميلاد حمل عليهم البارثيون ٤٠ ق.م. واعاد الفرس كرتهم عليها ٦١٢—٦١٦ ب.م. في عهد خسرو الثاني قبل الفتوحات الاسلامية في القرن السابع للميلاد بمدة يسيرة وسقطت غنيمة باردة في يد الاتراك السلجوقيين في القرن الحادي عشر ١٠٧٠—١٠٨٥ وفي القرنين الثالث والرابع عشر اكتسحها المغول ثلاث مرات[٣]

والفت اوربا نفسها مندفعة اليها في زمن الاسكندر الكبير، فكانت سوريا ممراً للاسكندر في زحفه الى مصر ٣٣٢ ق. م. ثم شاهدت نفسها مسرحاً لحروب السلوقيين والبطالسة في القرون التالية نزعت في سهولها بذور حضارتهم الاغريقية. واخضعها بومباي قيد الامبراطورية الرومانية ٦٥ ق.م. حتى افتتحها العرب ٦٣٤ ب.م. وبقيت في حوزة الصليبيين ما يقرب من القرن ١٠٩٨ — ١١٨٧ وبعض اجزائها، قرناً آخر ولم يأت اليها الصليبيون كثيرهم من الغزاة الفاتحين لانها كانت طريقاً لقطر آخر بل لانها كانت في نظرهم مجتمعاً لجميع المنافذ والجهات الاخرى. ثم جعلها نابليون الكبير ممراً لادراك مطامعه في تأسيس دعائم امبراطورية على الفرات والسند، وبتّ في مصير هذه الفكرة في سهولها ١٧٩٩

ومن ذلك الحين، كان تاريخ سوريا عبارة عن محاولات متفرقة بين آونة واخرى من قبل العالم الغربي لفرض حضارته الجديدة ونشر دينها القديم

* * *

فسوريا بلادٌ كثيراً ما يعيد التاريخ فيها نفسه. ولئن كنا نومن ان التاريخ لا يعيد نفسه دون ايما تعليل، فسنرى قيمة هذه الفتوحات والحملات من آسيا وافريقيا واوربا في اماطة اللثام عن سر ذلك الجزء من التاريخ السوري الذي نفشده (لها بقية)

الصلت (شرق الاردن) احمد بديع المقربي

---

(١) اخبار الايام الثاني، صح ١٤ : ٩ (٢) وقد اشير الى ذلك في ارميا صح ١٤:١٤ الخ قابل مع هيرودوتس ١ : ١٠٥ الخ (٣) في سنة ١٢٤٠ عقد السوريون والصليبيون بينهما تحالفاً ضد هجمات الخوارزميين، وهاجمها المغول مرة ثانية ١٢٦٠؛ ومرة ثالثة في ١٤٠٠ تحت قيادة تيمور وحلوا منهم اعيان دمشق ومفكريها وغيرهم من المدن الاخرى الى سمرقند